عقيدة

أهل السنة والجماعة

تأليف

حسَن بنْ عَلي السَقّاف

القُرشي الهَاشِمي الحسَيني

دار الإمام النووي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْـــد لله الـــذي توحيـــدُهُ أجَـــلُّ مـــا اعْتنـــى بـــه عبيـــدُه
العـــالم الحـــيّ القـــديم البـــاقي القـــادر الغـــنيّ بـــالإطلاق
مرشـــدُنا مـــن فضـــلِهِ وجـــوده بِصُـــنْعِهِ المُعْـــرب عـــن وجـــودِهِ
جـــلَّ عـــن الأشـــباهِ والنظـــائِرْ وكـــلِّ مـــا يَخْطُـــرُ في الضـــمائِرْ
وأُشْـــهِدُ اللهَ بـــأني أَشْـــهَدُ أنْ لا إلـــهَ غـــيرُهُ يوحَّـــدُ
وأنَّ طـــه المصـــطفى محمـــداً قـــد جاءَنـــا بالبيِّنـــات والهـــدى
فأفضـــلُ الصـــلاة والســـلام لِمَـــنْ حـــوى جوامـــعَ الكـــلامِ
فـــأفهمَ الحـــقَ ذوي الأذهـــان وأفحـــمَ الخصـــومَ بالبرهـــان
فمـــن أجـــابَ نـــال خـــيراً جـــدَّ لَـــهْ ومَـــنْ أبـــى أَذَلَّـــهُ وجَدَّلَـــهْ
صـــلى عليـــه الله مـــا الحـــقُ اعتلـــى مَـــعْ آلـــهِ وصـــحبه ومَـــنْ تَـــلا

الحمد لله الذي ليس كمثله شيء ، السميع البصير ، الذي أمرنا أن نصبر أنفسنا مع المتقين ، من العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين ، لنتعلم ما جاء به سيد المرسلين ، من عقيدة وأحكام في دين الله القويم ، أحمده حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ؛ حيث قال في كتابه ولم يزل قائلاً عليماً :

{ واصْبر نفْسَك مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداوةِ والعَشِيِّ يُريدون وَجهَهُ ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا }

الكهف : ٢٨ .

أما بعـــــد :

فهذا كتاب يشتمل على مسائل التوحيد الضرورية ، التي ذكرها الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الشافعي في أول كتاب قواعد العقائد من كتاب الإحياء ، وقد علَّقْتُ على عباراته تعليقات مُبَيِّنَةٍ لبعض عباراته ، وموضحة لمذهب أهل السنة والجماعة من طي كلماته ، بالأدلة الشرعية والعقلية ، وأقوال علماء الأمة المرجوع إليهم عند الناس كافة، كالإمام النووي، والحافظ البيهقي ، وابن حجر العسقلاني ، وأبو منصور عبد القاهر البغدادي، رحمهم الله تعالى، وغيرهم ممن سيمر نظرك بهم إن شاء الله تعالى ، وقد وضعنا قبل ذلك دليلاً عقلياً على وجود الله تعالى لتقر عين الناظر ، ويطمئن قلب الحائر ، ثم ختمنا هذا الكتاب برسالة للإمام النووي في الآداب والأخلاق الإسلامية ، علَّقنا عليها بما يُجَلِّي عباراته ، ويفصح عن إشاراته .

أسأله سبحانه أن يجعل عملي خالصاً مقبولاً ، مُسَدَّدَاً مؤيداً مأجوراً ، وسبباً للخلد في دار القرار ، وفي أعلى عليين مع سيد المرسلين ، آمين آمين .

مقـــــــدِمَة

اعلم ـ يرحمني الله وإياك ـ أن الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ولا سيما إذا كانت هذه السعادة أبدية ، فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن السعادة الأبدية لا تكون إلا بالإيمان بالله ورسوله وبعبادةٍ ممزوجة بالعلم والإخلاص ، قال أحدهم :

وكـلُّ مَـنْ بغـير علـمٍ يَعْمَـلُ أعمالُـــهُ مـــردودة لا تُقْبَـــلُ
واللهَ أرجـو المـنَّ بـالإخلاصِ لكـي يكـون موجـبَ الخَـلاصِ

وينبغي للإنسان المسلم الذكي المُتفَتِّح ، الحريص على دينه وإيمانه ، أن لا يكون همه منحصراً في المأكل والمشرب والمنكح والمبيت ، إذ أن هذه الأشياء يُشارك الإنسانَ فيها البهائمُ ، فلا بُدَّ لصاحب العقل والبصيرة أن يتفكر في آيات الله تعالى التي خلقها في السموات والأرض ليستدل بها على خالقها وموجدها ، فبذلك يكون إيمانه قوياً لا تزحزحه العواصف والرياح ، وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى التَفكُّر في تلك الآيات ، كما قال الله تعالى :

{ إنّ في خلـق السـموات والأرض واخـتلاف الليـل والنهـار لآيـات لأولى الألبـاب } [1]

وغيرها كثير في كتاب الله تعالى ، وكما قال أحد العلماء :

فإنْ نظرتَ في السـموات العُلـى وما حَوَتْ من الشـيات والحُلـى
وسقفها المرفـوع مـن غـير عَمَـدْ والـــنيرات المُشْـــعِرات بالأَمَـــدْ
ومـــا حوتـــه الأرض والبحـــارُ أبصـرتَ مـا فيـه النُّهـى تَحَـارُ
هـذا ومـا قـد غـاب عنّـا أكثـرُ مـــن البـــدائع الـــتي لا تحصـــرُ
فهـل يكـون الصـنع دون فاعـل أو وضعه من غير جعـل جاعـل
كـــلا لقـــد أفصـــحت الأكـــوان عـــن فعـــل رب مالـــه أعـــوانُ
مـــن أذعنـــت لقهـــره الأمـــلاك وانتظمـــت في أمـــره الأســـلاك
وأشـــرقت بنـــوره الأحـــلاك وســـبحت بحمـــده الأفـــلاك

---

(١) آل عمران : ١٨٩ .

الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه[٢]

وفيه مقامان : (المقام الأول) : وهو الأعلى :

الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه ، وهذا مما منع منه حيث قيل : « تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله » ، وذلك لأنَّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه ـ أحد من الخلق حقيقة ، فلا يعرف الله على الحقيقة إلا الله تعالى وحده ، بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنّه لا يطيقه البتة ، بل يختفي نهاراً وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فإنّه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ، ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب إذن أنْ لا يُتَعَرَّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لاتحتمله ، بل القدر اليسير الذي صرّح به بعض العلماء هو : أنّ الله مقدس عن المكان ، ومُنَزّه عن الأقطار والجهات ، وأنّه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورِجْل ويد وعين وعضو ، وأن يكون جسماً مُشخَّصَاً له مقدار وحجم ، فأنكروا هذا وظنوا أنّ ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إنّ هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله !! لظنِّ المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء . وهذا لأنّ الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل مالا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه : نعم غايته أنْ يُقدِّر الإنسان نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أنْ يقدر ذلك في حق الله ـ تعالى وتقدس ـ حتى يفهم العظمة .

بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك ، وقال : كيف يكون خالقي أنقص مني ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زَمِناً[٣]

---

(٢) هذا الفصل منقول من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء كتاب التفكر الجزء الرابع .

(٣) ضعيفاً. والزَّمِنُ : المريض الضعيف .

لا يقدر على الطيران ؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوِّري ؟ وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وإنْ الإنسان لجهول ظلوم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون .

ولّما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أنْ لا يُتَعَرَّض لمجاري الفكر فيه ، لكنا نعدل إلى :

(المقام الثاني) : وهو النظر في أفعاله ومجاري قدرته وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنها تدل عليه وعلى جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته ، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته .

واعلم أنَّ كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله تعالى وخلقه وهو دالٌّ على وجوده كما قال أحدهم :

فواعجباً كيف يعصى الإله أمْ كيف يجحده الجاحدُ

وفي كلِّ شيء له آية تدل على أنه الواحدُ

فوجود الله تعالى أشهر من أنْ ندلَّ عليه كما قال القائل :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فكل ذرة من ذرات هذا الوجود ، ناطقة على وجود الله تعالى ، بما فيها من العجائب والغرائب التي تظهر حكمة الله تعالى وقدرته .

الأدلة العقلية على وجود الله

أقرب آيات الله تعالى إليك الدالة على وجوده (نفسك) :

(فمن آياته تعالى) الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شيء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمته تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر معشاره وأنت غافل عنه .

فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : **{ وفي أنفسكم أفلا تبصرون }** الذاريات : ٢١، وذكر أنك مخلوق من نطفة فقال : **{ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفه خلقه فقدّره، ثم السبيل يسره ، ثم أمانة فأقبره ثم إذا شاء أنشره }** عبس : ١٧ ، وقال تعالى : **{ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون }** الروم : ٢٠ ، وقال تعالى : **{ ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقه فخلق فسوى }** القيامة : ٣٧ ، وقال تعالى : **{ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم }** المرسلات : ٢٠ ، وقال : **{ أوَلَمْ يَرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين }** يس : ٧٧ ، وقال : **{ إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج }** الإنسان : ٢، ثم ذكر كيف يجعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، فقال تعالى : **{ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً فتبارك الله أحسن الخالقين }** المؤمنين : ١٢. فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه ، فأنظر الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء لو تركت ساعة ليضربها الهواء لفسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ؟ ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركّب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ، فدوَّر الرأس وشق السمع

والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسَّم الأصابع بالأنامل ؟ ثم كيف ركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ! ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ؛ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات ، لانقضت فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوَّف ومُصْمَت وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقراً للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدّر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور ، فألَّف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ـ كما تراه ـ فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر لِلَّحي الأعلى ، واثنان لِلَّحْي الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا : ثم جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء . ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك . ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان

مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل .

فانظر كيف خُلِقَ جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة . وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإنَّ هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها في مُدبِّرها وخالقها أنّه كيف قدّرها ودبّرها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنّه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ـ وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمْر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ـ وشرحه يطول ـ فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن ، فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب ، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة ، فترى مَنْ هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات و كواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أنّ ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هي أحْكَمُ خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى : { **أأنتم أشد خلقاً ام السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** } فأرجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوَّلاً وما صارت إليه ثانياً ، وتأمل في أنه لو اجتمع الجن والإنس على أنْ يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عِرْقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك ؟

بل لو أرادوا أنْ يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أنْ خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه

فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنّه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحِذْقه وخفة يده وتمام فطنته وعَظُم في قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم والإرادة . وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكلّها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحَسّن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة عالمة ناطقة . وخلق لها الظهر أساساً لبدنها والبطن حاوياً لالآت غذائها والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ثمَّ حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ؛ ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مُرَّاً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوَّطها بصدفة الأُذن لتجمع الصوت فتردَّه إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومُعْرباً عما في قلب . وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤوسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام . وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للّسان قدرة الحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ،

ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واسقواس الشكل وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكُلْية لخدمة الكبد . فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها . والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها . والكُلْية تخدمها بجذب المائية عنها . والمثانة تخدم الكُلْية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل ، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرّض الكفَّ ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل إصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بُعْد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإنْ بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإنْ ضمّها ضمّاً غير تام كانت مِغْرفة له ، وإنْ بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من وراءئها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، ليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه . ثم هدى اليد إلى الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل . ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته ! فهل رأيت مُصَوِّراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه[٤] اهـ .

(وسئل) الشافعي رضي الله عنه : ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال : « ورقة التوت الأحمر طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم ؟ فقالوا : نعم . قال : فتأكلها دودة القز ، فيخرج منه الإبريسم ـ الحرير ـ والنحل ، فيخرج منها العسل ، والشاة ، فيخرج منها البعر ،

---

(٤) الإحياء كتاب « التفكر » المجلد (٤) .

ويأكلها الظباء فيخرج منها المسك !! فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك ، مع أنَّ الطبع واحد ؟ » فاستحسن الناس منه ذلك .

(وتمسّك) الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ـ بالدلالة على وجود الله تعالى ـ بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير !! فلا بد من الفاعل ، عنى بالقلعة : البيضة ، وبالحيوان : الفرخ .

(وسئل) أحدهم عن وجود الله تعالى فقال :

تأمَّلْ في نبات الأرض وانظرْ ... إلى آثار ما صنَعَ المليكُ
عيونٌ من لجين شاخصاتٌ ... بأحداقٍ كما الذهبُ السبيكُ
على قُضُبِ الزَّبَرْجدِ شاهداتٌ ... بأن اللهَ ليس له شريكُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى : ترجمة عقيدة أهل السُّنة في كلمتي الشهادة .

معنى الكلمة الأولى : لا إله إلا الله فنقول وبالله تعالى التوفيق[٥] :

الحمد لله المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، ذي العرش[٦] المجيد والبطش الشديد ، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم من ظلمات التشكيل والترديد[٧] السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى ، واقتفاء آثار

---

(٥) التوفيق : هو توفير أسباب الطاعة ، بخلاف الخذلان فإنه عدم توفير أسباب المعصية .

(٦) معنى ذي العرش : أي خالق العرش ومالكه ، والعرش إما جسم هو أعظم المخلوقات ، أو المُلك وهو جميع العالم أي الكون وهو الأصح ، وورد في الحديث الذي رواه ابن حبان ، قال عليه الصلاة والسلام : « يا أبا ذر : ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلْقةٍ مُلقاةٍ بأرض فلاة ، وفضل ـ أي زيادة ـ العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » وهو صحيح كما في « فتح الباري » (١٣/ ٤١١) ، (والواقع أنّه حديث ضعيف بل إسرائيلي وهو خلاصة القول في هذا الحديث كما بينته فيما بعد في شرح الطحاوية حاشية ٢٢٠) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٤٠٥) في تفسير قوله تعالى : **{ رب العرش العظيم }** : قال الحافظ البيهقي في الأسماء والصفات : اتفقت أقاويل هذا التفسير على أنّ العرش هو السرير وأنّه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه وبالطواف به كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة اهـ كلام البيهقي . قلت : وينبغي التنبه إلى أنه كما يتنزه الله تعالى أنْ يكون حالاً في الكعبة ، يتنزه أيضاً أنْ يَحُلَّ في العرش أو يجلس عليه . كما يظن بعض الحمقى . إذ **{ ليس كمثله شيء }** وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . فالله تعالى غير محتاج إلى العرش وإلى المكان كان قبل خلق المكان وهو الآن على ما عليه كان .

(٧) ينجو العبد من الشك والتردد إن تعلمَّ دليلاً أو أكثر على وجود الله تعالى كالدليل الذي وضعناه أول هذا الكتاب ، وذلك يحصل بسماعه من مُعَلِّم أو قراءته من كتاب والسماع أحسن ، ثم بتعلم علم التوحيد الذي سنذكره في هذا الكتاب ثم بالمواظبة على الطاعات وترك المنهيات ، فمن فعل ذلك كان سبباً لِيَقِيَهُ الله تعالى من التشكيك والتردد .

واعلم أنّ الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنة والجماعة (إذا فسَّرناه بالعمل ؛ أما إذا فسرناه بالتصديق والجزم بالعقائد فهو لا يزيد ولا ينقص هذا هو الصحيح المعتمد كما هو مشروح في صحيح شرح الطحاوية للعبد الفقير ص ٩٦ -٩٩) قال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح البخاري (١/ ٤٦) : « قال النووي : الأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص يزيد بكثرة النظر ووضوح الأدلة ،

صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد ، المتجلّي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد[٨] ، المُعَرِّف إيّاهم أنّه في ذاته واحد لا شريك له ، فرد[٩] لا مثل له ، صمد[١٠] لا ضد له ، منفرد لا ند له[١١]، وأنه واحد قديم [١٢] لا أول له ، أزلي [١٣] لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ، أبدي[١٤] لا نهاية له ، قيوم[١٥] لا انقطاع

ولهذا كان أيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا يعتريه الشبه » (قلت : وهو خلاف ما هو معتمد عندنا) .

(٨) أي حاضر القلب ، وفي هذا السياق رمز صريح إلى أنه لا يحيط مخلوق بحقيقة ذات الخالق ولا بحقيقة أوصافه إلا بالحيرة والدهشة ، وأما اتساع المعرفة والإدراك فإنما يكون في معرفة أسمائه وتوحيده ، وكلٌّ يُعطي على قدر مقامه واجتهاده فالبحث عن الكيفية ضلال ، والمطلوب معرفة وجود الله تعالى والإيمان بصفاته بعيداً عن التشبيه والتجسيم ولذلك بيَّن المصنف بعض معاني الصفات كما سيمر بك إن شاء الله .

(٩) قال الإمام المحدث الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ٢٠٢) : « قال أبو منصور البغدادي : أجمعت الأمة على إطلاق اسم الفرد على الله تعالى » اهـ .

(١٠) قال الزبيدي : « قيل في الصمد ثلاثة أقوال : (أحدها) : أنه الذي لا يُطْعَم ، و(الثاني) : أنّ الصمد هو الذي لا جوف له ، ففيه إبطال قول المُشَبِّهَة الذين زعموا أن معبودهم صورة مجوفة كاليهود والهشامية ، فأخبر الله أنه صمد ليس له جوف ولا صورة ولا تركيب . تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، (والقول الثالث) : وهو ما ذهب إليه أهل اللغة بلا اختلاف ، أنّ الصمد هو : السيد الذي انتهى إليه السؤدد ، والمصمود في النوائب أي المقصود » اهـ

قلت : فعلى هذا يكون معنى : « الله الصمد » أي الذي ترفع إليه الحوائج ويقصد في النوائب . وكذا قال الإمام أبو منصور البغدادي وإياك أن تظن أنه لا يجوز إطلاق لفظ سيد على غير الله فقد قال تعالى عن سيدنا يحي : { **وسَيِّداً وحصوراً** } آل عمران : ٣٩ .

(١١) أي : مثل .

(١٢) قال : الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين » (٢/ ٢١) : « أجمعت الأمة على وصفه تعالى به » اهـ ومعناه : الأزلي الأول الذي لا بداية له .

(١٣) أزلي : هو الذي لا بداية له ، وهو معنى اسمه الأول .

(١٤) أبدي : هو الذي لا نهاية له ، وهو معنى اسمه تعالى الآخر .

(١٥) أي قائم على كل مخلوق بالتدبير ، قال الغزالي في المقصد الأسنى : « القيوم الذي قوامه بذاته وقيام كل شيء به وليس ذلك إلا الله » اهـ وقال الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ٢٣) : « ومعنى قول بعضهم إنّ المخلوقات قائمة بالله تعالى هو على معنى أنه الموجد لها لا على معنى حلولها فيه » اهـ **قلت :** ونقل الأئمة تكفيرَ مَنْ يعتقد الحلول في ذات الله تعالى كالنصارى وغيرهم ممن ينسب نفسه للإسلام ، وما يقوله

له ، دائم [١٦] لا ذهاب له ، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال لا يُقضى عليه بالانقضاء بتصرم الآباد[١٧] ، وانقراض الآجال [١٨] ، بل : { **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** } [١٩] .

بعض المتصوّفة من عبارات غامضة يترجّح فيها معنى الحلول أو الاتحاد أو ليس لها على حسب قواعد اللغة إلا معنى فاسد شرعاً فإنه يجب علينا إنكارها ، واعتقاد ضلال قائلها وزيغه ، إذ لسنا بحاجة إلى كلمات فلسفية غامضة ، وترهات بعيدة عن منبع الإسلام الأصلي : الكتاب الكريم والسنة المطهرة الشريفة ، لأنَّ لنا فيهما أكبر غناء بأوضح عبارة وأسهل أسلوب ، ونحن بحاجة ماسة إلى تعليم الناس عقائدهم الصحيحة الواضحة المبنية على القرآن والسنة لا على الترهات والكلمات والجمل الفلسفية المبنية على الغموض ، والتأويل البعيد الذي ترفضه قواعد اللغة ، والله تعالى المستعان .

(١٦) معناه : باق ، قال الإمام المحدّث الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ٢٣) : « فأمّا الدائم بمعنى الساكن ، فإنما يصح وصف الله تعالى بذلك على مذهب الكرامية المجسمة والمشبهة فإن هؤلاء قبحهم الله تعالى وصفوه بأنّه جسم مماس للعرش ووصفوه أيضاً بالانتقال عنه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » اهـ باختصار فراجعه .

(١٧) الآباد : جمع أبد وهو الدهر الطويل .

(١٨) الآجال جمع أجل وهو المدة والوقت .

(١٩) سورة الحديد : ٣ ، وثبت في الحديث الصحيح كما في مسلم (٤/ ٦١/ ٢٧١٣) : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول : « اللهم أنْتَ الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدَّين ، واغننا من الفقر » . قال الحافظ البيهقي في كتابه « الأسماء والصفات » ص (٤٠٠) : « استدل بعض أصحابنا بهذا الحديث على نفي المكان عن الله تعالى ، فإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان » اهـ .

قلت : فبطل قول من قال : إنّ الله بذاته في كل مكان ، كما بطل قول من قال : إنه بذاته فوق العرش ، ونحن نقول الله فوق العرش بمعنى قاهر العرش وما تحت العرش ولا يعنى ذلك أن الله في مكان وأنَّ هذا المكان فوق العرش ، لأنّ الفوقية فوقية قهر لا فوقية مكان ؟ قال تعالى : { **وهو القاهر فوق عباده** } فاتضح فساد قول من قال إنّه خارج العالم على العرش . ويزعم بعض الحمقى أنّنا إذا قلنا أن الله تعالى لا يوصف بأنّه خارج العالم ولا داخل العالم أدّى ذلك إلى القول بعدمه والجواب عنه يقال : إنه تعالى متنزه عن المكان فهو موجود بلا مكان لأنه خالق المكان ، والمكان غير الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما في البخاري (٣١٩٢) : « كان الله ولم يكن شيء غيره » ، أوَلَيْسَتِ الأماكن والجهات سوى الله » وقد كان موجوداً في الأزل وحده ؟ ثم أحدث وخلق الأماكن والجهات فكيف تُنْسَبُ إليه ؟ قال الحافظ ابن حجر

صفات الله تعالى وتنزيهه

التنـــزيـــه : اعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى ليس بجسم [٢٠] مُصَوَّر ، ولا جـوهر محـدود [٢١] مقدّر . وأنّه لا يماثل الأجسام ، لا في التقـدير ولا في الانقسـام ، أنـه لـيس بجـوهر ، ولا تَحُلُّـه الجواهر ـ أي الأجسام ـ ولا بِعَرَضٍ ولا تحله الأعراض ـ أي الصفات والآفات التي فيها نقـص كالمرض ونحوه ـ بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود **{ ليس كمثله شيء }** ولا هو مثل شيء

العسقلاني في « فتح الباري » (٦/ ١٣٦) : « ولا يلزُم من كون جِهَتَي العلو والسفل محالٌ على الله أنْ لا يوصف بالعلو ، لأن وصفه بالعلو من جهة المعنى ، والمستحيل كون ذلك من جهة الحس » اهـ .

فقول من قال : « الله فوق العرش في مكان عدمي » ظاهر الفساد لتناقضه فالقائل يريد أنّ يُدْرك الله بعقله والله تعالى لا يَدْرَك وعلينا أن نسلّم بذلك ، فاقتضى التنبيه .

(٢٠) قال المحدث الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ٢٤) : « فمن وصفه تعالى بالجسمية ضل وأضَلَّ ، وقـد حكى البيهقي عن شيخه الحَليمي أنَّ قوماً زاغوا عن الحق فوصفوا الله تعالى بأنّه جسم » اهـ . قال الزبيـدي : « ومنهم من زاد على ذلك فقال : إنه مصوَّر أي حسن الصورة معتدلها ، وقد أجمع أهلُ السنة علـى أنّ الله تعالى خالق الصور كلها ليس بذي صورة ولا يشبه شيئاً { ليس كمثله شيء } » انظر مبحث الصورة « فـتح الباري » (١٣/ ٤٢٧ – ٤٢٨) ، وعارضة الأحوذي شرح الترمذي (١٢/ ١١٠) ، و « الأسمـاء والصـفات » للبيهقي ص (٢٨٩) .

(٢١) أي انّ الله تعالى ليس جسماً ذو حد ونهاية فالحد والنهاية منفيان عنه تعالى ، فهو سبحانه أكبر مِنْ أنْ يُحَدَّ، فمن أسْمائه الكبير ومعنى الكبير كما قال البيهقي في الاعتقاد ص (٣٥) : « الكبير هو الموصوف بالجلال وكبر الشأن فصغر دون جلاله كل كبير ، وقيل : هو الذي كبر عن مشابهه المخلوقين » اهـ . وأبطل الحافظ ابن حجر في « لسان الميزان » (٥/ ١١٤) : قول من قال بالحد وبيَّن أنّ قول من قال لمن نفى الحد : (ساويت ربك بالشيء المعدوم اذ المعدوم لا حد له) نازل أي : ساقط لا عبرة به .

ونقل الإمام البغدادي في « الفرق » ص (٣٣٢) : أنّ أهل السنة « اتفقوا على نفي النهاية والحد عن صانع العالم خلافاً للهشامية والكرامية المجسمة » اهـ . وكذلك قال الإمام الطحاوي في عقيدته ، ولا تغتر بكلام بعض شارحي العقيدة الطحاوية القائلين بالحد المخالفين للدلائل القطعية ولما أجمع عليه المسلمون . وقال الإمام الإسفراييني في « التبصير » بتحقيق العلامة الكوثري ص (٩٥) : « اعلم أنَّ خالق العالَم لا يجوز عليه الحد والنهاية » . انظر قاعدة في الجرح والتعديل للسبكي ص (٣٠-٣١) ، وكيف يوصف الله تعالى بالحد ولم يَرِدْ في كتاب ولا في سنة وصفه تعالى بالحد ، فالمحدود هو المخلوق من الأجسام والجواهر والأعراض والله تعالى أخبرنا في كتابه بأنه : **{ ليس كمثله شيء }** .

. وأنه لا يَحُدُّه المقدار ، ولا تحويه الأقطار[٢٢] ، ولا تحيط به الجهات [٢٣] ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات .

فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء [٢٤] وفيه أيضاً إشارة

---

(٢٢) أي أنه تعالى ليس محصوراً في مكان كالأرض أو كالسماء ، ومن الخطأ قول كثير من الناس : « الله في كل مكان » فإن أرادوا أنّ علمه في كل مكان فقد أصابوا في المعنى وأخطأوا في اللفظ فيبنغي أن يقولوا : الله عالم بكل شيء في كل مكان . لأن عبارة : « الله في كل مكان » موهمة لسامعها بأنّ الله تعالى بذاته في كل مكان وإن كان قائلها لا يقصد إلا العلم . قال سيدنا علي : « كان الله ولا مكان وهو الآن على ما كان » اهـ نقله الإمام أبو منصور البغدادي في كتاب « الفرق بين الفرق » ص (٣٣٣) .

(٢٣) قال الإمام المحدث الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ١٠٤) :

« وأما إحالة كونه في جهة ـ تعالى الله عن ذلك ـ فإنّ ذلك كإحالة كونه في مكان فلذلك أحلنا إطلاق اسم الجهة على الله تعالى » اهـ .

وقال الشيخ محمود خطاب السبكي أيضاً : في كتاب : « إتحاف الكائنات » : « وقد قام إجماع السلف والخلف على أنّ من اعتقد أنّ الله تعالى في جهة فهو كافر كما صرح به الحافظ العراقي ، وبه قال أبو حنيفة ومالك الشافعي وأبو الحسن الأشعري والباقلاني » اهـ وذكر هذا الإجماع العلامة ملا علي قاري في « شرح المشكاة » (٢/ ١٣٧) .

وقال الإمام الطحاوي في عقيدته المشهورة : « اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن .... تعالى الله عن الحدود والأركان والأعضاء والأدوات ، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبدعات » اهـ .

(٢٤) أي ليس لأن الله تعالى ساكن فيها أو حالٌّ بها إذ يتعالى عن المكان كما أنه متعال عن الكعبة وليس ساكناً فيها مع أننا نتوجه إليها في الصلاة ، ولأن السماء مهبط البركات والخيرات فالله تعالى خلق السماء وأسكن فيها الملائكة ، وخلق الأرض وأسكن فيها الإنس والجن ، ويتعالى أن يَحُلَّ فيهما ولذلك قال :{ **ولله ما في السموات وما في الأرض** } ، وجميع الآيات والأحاديث التي ظاهرها جهة السماء المراد منها العلو المعنوي والفوقية القهرية ، والعرب الذين جاء القرآن بلغتهم إذا أرادوا وصف أيَّ شيء بالعظمة والرفعة والكبرياء يشيرون في تعظيمه إلى جهة السماء وإلى العلو المعنوي كما هو مشهور ، فالعلو المراد بالفوقية ونحوها هو من جهة المعنى وليس من جهة الحس في حق المولى تبارك وتعالى كما قرر ذلك الحافظ في « الفتح » (٦/ ١٣٦) .

وقال الإمام النووي في « شرح مسلم » (٥/ ٢٤) ، والحافظ ابن حجر في شرح البخاري (٢/ ٢٣٢) : إن السماء قبلة الداعين كما أنّ الكعبة قبلة المصلين ، وكذلك قال الإمام المحدّث الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ١٠٤ و ١٠٥) وردّ على من قال :« إنّ نفي الجهات الستة عنه تعالى إخبار عن عدمه تعالى » . وقد أشار

إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيهاً بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء . وأنّه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده ، استواء[٢٥] منزّهاً عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال[٢٦] ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته

وصرّح بذلك الإمام النسفي فقال : « رفع الأيدي والوجوه عند الدعاء ـ إلى السماء ـ تعبد محض ، كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة فالسماء قبله الدعاء ، كالبيت قبله الصلاة » اهـ .

قلت : ولا تجد مخلوقاً إلا في جهة ، أي مكان إما فوق أو أمام أو يمين أو عسكها والله تعالى : **{ ليس كمثله شيء }** كما أخبرنا **{ ولم يكن له كفواً أحد }** فاستحال وصفه بالجهة . وهذه أقوال الأئمة المرجوع إليهم مع الأدلة الشرعية التي قدّمناها تنزه الله عن المكان والجهة . قال الزبيدي في « شرح الإحياء » (٢/ ١٠٥) : « واعلم أنّ المنظورّ إليهم إنّما هم الأئمة القدوة والعلماء الجلة ، ولا عبرة بالمقلدة الواقفة مع ظاهر المنقول الذين لم يفرقوا بين المحكم والمتشابه » اهـ .

(٢٥) ينبغي التنبيه هنا إلى أنه قد انتشر بين الناس وكُتِبَ في بعض الكتب عبارة : « الاستواء معلوم والكيف مجهول .. الخ » وهذا غلط فاحش بل الذي ورد عن الإمام مالك رحمه الله تعالى وغيره : « الاستواء معلوم ـ وفي أكثر الروايات الاستواء غير مجهول أي معلوم ذكره في القرآن ـ والكيف غير معقول » . والمشبهة يذكرون لفظ « والكيف مجهول » ليثبتوا أنّ لله كيفية مع أنّ الله مُنَزَّه عن الكيف ، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « شرح البخاري » (١٣/ ٤٠٦و٤٠٧) الروايات للعبارة وإليك هي باختصار : عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت ـ وهي أوّل مَنْ سُئِلَ عن الاستواء : « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول » ، وكذلك قال ربيعة شيخ الإمام مالك . وروي البيهقي بإسناد جيد عن عبدالله ابن وهب قال : « كنا عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبدالله : **{ الرحمن على العرش استوى }** كيف استوى ؟ فقال مالك : الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع وما أراك إلا صاحب بدعة ، أخرجوه » اهـ . ـ وذكر الحافظ ـ أنّ مذهب أهل السنة في هذه الآية بلا كيف ، وذكر أنّ هذه طريقة الشافعي وأحمد . فتبين أنّ قولَ بعضهم (الاستواء معلوم والكيف مجهول) باطل بهذا اللفظ .

(٢٦) وأما حديث النزول الذي ظاهره الانتقال فهو محال على الله تعالى أي الانتقال من مكان إلى مكان ، بل المراد منه يُنْزِل مَلَكاً بضم الياء في يُنْزِل ، لأن الحديث يفسر بالحديث فقد روى النسائي هذا الحديث بلفظ : « إنّ الله يمهل حتى يمضي شطر الليل ثم يأمر منادياً يقول : هل من داع فيستجاب له » الحديث، وهو صحيح ، وقد ذكر ما يتعلَّق بهذا الإمام الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٣/ ٣٠ و ٣١) فانظره ولا تعول على غيره .

وهو فوق العرش والسماء[٢٧] وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قُرْباً إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بُعْداً عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش[٢٨] والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو ـ سبحانه ـ مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد [٢٩] **{ وهو على كل شيء شهيد }** إذ لا يماثلُ

---

(٢٧) وليس حديث الجارية دليلا على أنّ المولى سبحانه حال في السماء ، وقد قدّمنا أنّ لغة العرب تقتضي الإشارة للسماء لمن أُريد تعظيمه ، قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/ ٣٥٩) : « ولو قال من يُنْسب إلى الجسيم من اليهود لا إله إلا الذي في السماء ، لم يكن مؤمناً كذلك إلا إنْ كان عامياً لا يفقه معنى التجسيم فيكتفى منه بذلك كما في قصة الجارية التي سألها النبي صلى الله عليه وآله وسلم » اهـ . وكذا شرح مسلم (٥/ ٢٤) . وقد صح حديث الجارية بلفظ : « أتشهدين أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقالت نعم » ونحن نقول هذا هو الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ، ولفظة « أين الله » لا تثبت لأنها مروية بالمعنى .

(تنبيه) : هناك نصوص يوهم ظاهرها أيضاً بأنه سبحانه حال في السماء أو جالس على العرش أو محاذياً للعرش غير مماس ، وكلها نصوص من المتشابه الذي ظاهره غير مراد ولا يفقه ذلك إلا الراسخون في العلم **{ فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه }** فإنْ كان السامع لتلك النصوص عالماً مُنَزّهاً فإنه سيعرف معناها حسب السياق والعربية وقواعد التنزيه ، وإنْ كان السامع كأغلب أهل هذا الزمان فإنّه يسأل عنه أهل العلم المنزهين فيؤوّلونه له تأويلاً حقاً صحيحاً لا ينافيه القرآن ولا السنة ولا لغة العرب ، إذ أنّ التأويل ضربان حق وباطل كما هو معلوم ، وقد ثبت عن كثير من السلف أنهم أوّلوا ، كما ثبت عن الإمام أحمد أنه قال في **{ وجاء ربك }** وجاءت آثار قدرته . وعن ابن عمر أنه قال في **{ الرحمن على العرش استوى }** أي استوى أمره وقدرته فوق بريته ، انظر « مسند الربيع » (٣/ ٣٥) . فتُأَوّل تلك النصوص الموهمة للتشبيه عند مَنْ قلنا حرصاً على عقيدة العوام إذ أنهم ليسوا كالصحابة ومن بعدهم فيعرفون مجاز اللغة وأساليب العربية . والله الموفق .

(٢٨) ورد في حديث صحيح الإسناد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أُذِنَ لي أنْ أُحدِّث عن مَلَك قد مَرَقَتْ رجلاه الأرض السابعة والعَرش على منكبه وهو يقول : سبحانك ـ أي أُنزهك أنْ يقال فيك ـ أين كنت وأين تكون » والحديث صحيح رواه أبو بعلي عن أبي هريرة ، انظر « مجمع الزوائد » (١/ ٨٠) ، فهذا صريح في تنزيه الله عن المكان وعن أن يحيط مخلوق بذات الله ، أو أنْ يتوهم أنّ له مكاناً ، سواء كان فوق العرش أو تحته .

(٢٩) قال تعالى : **{ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد }** سورة ق : ١٦ . وقال تعالى :**{ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون }** سورة الواقعة : ٨٥ .

قُرْبُهُ قربَ الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يَحُلُّ في شيء ولا يَحُلُّ فيه شيء ، تعالى أنْ يحويه مكان كما تقدّس عن أنْ يحده زمان ، بل كان قبل خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان ، وأَنه بائن[٣٠] عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته ، وأَنه مقدّس عن التغير والانتقال ، لا تَحُلُّهُ الحوادث ولا تعتريه العوارض[٣١] بل لا يزال في نعوت جلاله مُنَزَّهاً عن الزوال وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال . وأَنّه في ذاته معلوم الوجود بالعقول[٣٢] مرئي الذات بالأبصار[٣٣] نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار ، وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم .

---

(٣٠) أي غير مشابه ولا مماثل اهـ .

(٣١) معناه أنه لا يحدث فيه أو يعرض عليه أيُّ صفة نقصٍ كالمرض والغفلة بل هو منزه عن أن يزداد علماً كما يزداد المخلوقين إذ أنّ ذلك يقتضي أنه كان جاهلاً بالشيء ثم علمه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٣٢) أي أنّ الله تعالى يُعْرف في الدنيا بالعقل ، ولا يُرى بالأبصار في الدنيا . قال اللقاني في شرح الجوهرة (١٧٥) : « من ادّعى رؤية الحق غير النبي في الدنيا يقظه فهو ضال بإطباق المشايخ . وذهب الكواشي والمهدوي إلى تكفيره » اهـ .

(٣٣) ذهب جمهور أهل السنة إلى إثبات رؤية الناس لله تعالى في الجنة كما ذكره المصنّف هنا ، وذهب أئمة آل البيت قاطبة في القرون الأولى والسادة الزيدية والإمامية والمعتزلة والإباضية وجماعة من أئمة أهل السنة كالسيدة عائشة وأبي صالح السمان ومجاهد وبشر بن السري الأفوه ويحيى الوحاظي إلى أنَّ الله تعالى لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة ، ومذهب المصنِّف أنّ الله تعالى يراه المؤمنون في الآخرة محتجاً بقوله تعالى : { **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** } ويحجب عن الرؤية الكافرون ونحوهم قال تعالى : { **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** } وبعض الذين لم يوفقهم الله تعالى وخاصة المجسمة قالوا بأن الجميع من مؤمن وكافر يرونه سبحانه في عرصات القيامة واحتجوا بحديث أبي هريرة وجرير البجلي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « هل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر ، ليس بينكم وبينه سحاب ؟ كذلك ترون ربكم » حديث صحيح متفق عليه وفيه أن الله يأتيهم بغير صورته التي يعرفون وأنه يتشكل لهم فتارة يأتيهم بصورته التي يعرفونها وتارة بصورة أخرى لا يعرفونها وأنه ينطلق فيتبعونه !! كأنه رجل قائد لهم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وأستغفر الله تعالى عن كتابة مثل هذا فضلاً عن اعتقاده .

وقد فَصَّلْتُ أدلة كل من الطرفين في « صحيح شرح العقيدة الطحاوية » ص (٥٨٢-٥٩٠) .

وما نعتقده هو مذهب أئمة آل البيت ومن تبعهم المؤيد بدلائل المنقول والمعقول من أن الله تعالى لا يرى في الدارين وهو منزه عن ذلك سبحانه وتعالى .

٢ و ٣ – الحياة والقدرة :

واعلم أنّه تعالى حي قادر ، جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سِنَةٌ[٣٤] ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنّه ذو الملك[٣٥] والملكوت[٣٦] ، والعزة والجبروت[٣٧] ، له السلطان والقهر ، والخلق والأَمر ، والسموات مطويات بيمينه[٣٨] ، والخلائق مقهورون في قبضته[٣٩] ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع[٤٠] ، المتوحِّد بالإيجاد والإبداع ، خلق الخلق وأعمالهم[٤١] وقدّر أرزاقهم وآجالهم[٤٢] ، لا يشذ عن قبضة مقدور ، ولا يعزب[٤٣] عن قدرته

---

(٣٤) أي غفلة .

(٣٥) عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية .

(٣٦) عالم الغيب .

(٣٧) العظمة .

(٣٨) بقدرته وتدبيره . كما تقول هذا الأمر بيدي أو تحت يدي : أي تحت تصرفي .

(٣٩) أي قهره . انظر مقدمتنا لكتاب العلو ص (٤٨-٥٣) فإنَّ فيها تحقيق دقيق جداً في معنى اليد والقبض في حق المولى سبحانه وتعالى .

(٤٠) أي : خلق الشيء وإيجاده على غير مثال سابق .

(٤١) في هذه المسألة قولان مشهوران للمسلمين لا يسع المقامُ هنا الإسهابَ فيهما ، الأول : أن أعمال العباد من صنعهم وليست فعلاً لله تعالى ومؤدّى ذلك أنهم مختارون فيها وأنهم غير مجبرين على فعلها ولا يقال إنها مقدرة عليهم وما كان باستطاعتهم أن يتجنبوا فعلها ولذلك يحاسبون عليها وهذا هو الصواب الذي ندين الله تعالى به وهو قول الأئمة السابقين من آل البيت والزيدية والمعتزلة ، والقول الثاني وهو قول الأشعرية أن الأفعال مخلوقة لله تعالى وأنَّ العبد ليس له إلا الاختيار والكسب ثمَّ قالوا بأنَّ الاختيار أيضاً مخلوق لله تعالى وليس من صنع العبد وفعله واحتجوا بقوله تعالى : **{ والله خلقكم وما تعلمون }** سورة الصافات : ٩٦ . وبقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « وإنّ الله تعالى صانع كل صانع وصنعته » رواه الحاكم في المستدرك ، وأقره الذهبي . وأجاب أصحاب المذهب الأول عن الآية الكريمة بأن المراد كما هو واضح من سياق الآية بقوله تعالى { وما تعملون } الأصنام التي كان يعبدها أولئك المشركون وهي أعيان وأجسام مخلوقة لله تعالى ، وأما أفعال العباد الاختيارية فهي أعراض من صنع العباد وليس فيها إبراز شيء من عدم .
وأجابوا عن الحديث بأنه آحاد ولا يبنى عليه أصل اعتقاد يُكَفَّر مخالفه ، ويمكن تأويله بأنَّ العبد الصانع إذا صنع شيئاً ما من الأعيان فإنَّ الله تعالى هو صانع العبد وصانع ذلك الجرم أو الجسم الذي شَكَّلَهُ العبد بتشكيل معيَّن ليقوم به بتحقيق غرض من الأغراض المعيشية أو غيرها .

تصاريف الأمور ، لا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته .

٤- العلم :

وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذر[٤٤] في جو الهواء ، ويعلم السر وأخفى[٤٥] ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال .

٥- الإرادة :

اعلم أنّه تعالى مريد للكائنات ، مُدَبِّرٌ للحادثات ، فلا يجري في المُلْكِ والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقَدَرِهِ وحكمته ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلته خاطر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، لا رادَّ لأمره ، ولا مُعَقِّبَ لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته ، فلو اجتمع الإنس والجن ؛ والملائكة والشياطين ، على أنْ يحركّوا في العالم ذرة أو يسكّنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وإنّ إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفاً بها ، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدّرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في الأزل ، من غير تقدّم ولا تأخر ، بل

---

(٤٢) في صحيح مسلم (٢٦٦٣) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لزوجته أم حبيبة : « قد سألت الله لأجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة » فالله تعالى قدّر الأرزاق والآجال في الأزل وأظهرها في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ففي مسلم (٢٦٥٣) : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أنْ يخلق السموات وإلارض بخمسين ألف سنة » لكنَّ حديث عبد الله بن عمرو هذا يحتمل أنه من الإسرائيليات التي نقلها فلا ينبغي أن نبني عليه حكماً والله تعالى أعلم .

(٤٣) أي يغيب .

(٤٤) الذر : هو الهباء المنتشر كالغبار في الهواء وهو الذي يُرى في ضوء الشمس .

(٤٥) الصواب أن نقول بأنَّ السر هو الشيء الذي قيل همساً بين اثنين أو أكثر ولم يطلع عليه بقية الناس والأخفى هو الشيء الذي يدور في النفس ولم يتكلَّم به الإنسان .

وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدّل ولا تغير [٤٦] ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ، ولا تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

٦، ٧ – السمع والبصر :

وأنّه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، ولا يَعْزُبُ عن سمعه مسموع وإنْ خفِيَ ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإنَّ دَقَّ ، ولا يحجب سمعَهُ بُعْد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

٨- الكلام :

وأنه تعالى متكلم آمر ، ناه ، واعد ، متوعد بكلام أزلي قديم ، قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوتٍ[٤٧] يحدث من انسلال هواء ، أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع

---

(٤٦) اعلم أَنّ إرادة الله وقضاءه لا يرد ، فإذا أراد الله شيئاً أي في إلازل فلا يُرَدُّ ولا تتغير إرادته لا لدعوة نبي ، ولا لدعوة ولي ، فقد ثبت في « صحيح مسلم » (٢٨٩٠) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أنْ لا يُهلِكَ أُمتي بالسَّنَة ـ أي المجاعة فأعطانيها ، وسألته أنّ لا يُهلك أُمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أنْ لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » وفي رواية : « وإنّ ربي قال إنّي إذا قضِيْتُ قضاءً فإنه لا يُرَد » . وأحاديث : « إنّ الدعاء يَرُدُ القضاء » ضعيفة لا يحتج بها ، فلا تعارض النصوص القطيعة ، وأما الأحاديث التي يذكر فيها زيادة العمر ، فالمراد بها البركة في العمر والتوفيق للطاعة ، وقد بسط هذا البحث الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في « الفتح » (١٠/ ٤١٥ و ٤١٦) فراجعه ، لئلا يتعارض مع قوله تعالى : { **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** } وأما معنى { **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** } أي يمحو ما شاء من صحف الملائكة وعنده أم الكتاب الذي أثبت فيه الأشياء فلا تمحى .

(٤٧) قال أبو الحسن الأشعري : الكلام كله ليس من جنس الحروف ، ولا من جنس والأصوات بل الحروف والأصوات على وجه مخصوص دلالات على الكلام القائم بنفس المتكلم . وقال أبو العباس القلانسي : وإذا قرأ القارىء منا كلام الله تعالى فقراءته حرف وصوت ، ومقروؤه ليس بحروف ولا أصوات ، وهذا القول هو اختيار أكثر أصحاب الحديث ، قال أبومنصور البغدادي وبه نقول : قام إمام الحرمين أبوالمعالي مذهب أهل الحق جواز سماع ما ليس بحرف ولا صوت . وليس في الأحاديث الواردة في الصوت ما يصح التمسك به كما توسع في بيان ذلك الحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ المنذري في جزء الصوت ، وما ذكر في البخاري تعليقاً بصيغة يذكر في سنده عبدالله بن محمد بن عقيل وقد أطال المقدسي في سردِ أقوال الطاعنين فيه مثل

بإطباق شفة أو تحريك لسان ، وأنَّ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأنّ القرآن مقروء بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، محفوظ في القلوب ، وأنّه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق .

معنى الكلمة الثانية
محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

الكلمة الثانية هي الشهادة للرسل بالرسالة ، وأنه تعالى بعث النبي الأمي محمداً صلى الله عليه وآله وسلَّم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس(٤٨) ، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضّله على سائر الأنبياء ، وجعله سيد البشر(٤٩) . ومنع الإيمان بشهادة

مالك ، وابن معين ، وأبي حاتم ، وابن خزيمة ، وابن حبان وغيرهم والقاسم بن عبدالواحد الراوي عنه لا يحتج به كما قال أبو حاتم . أفاده العلامة الكوثري رحمه الله تعالى .

فليس كلام الإنسان أو « المُسَجِّل » الذي هو حرف وصوت يشبه كلام الخالق ـ قال تعالى : **{ أفمن يخلق كمن لا يخلق }** وعند أهل الحق كما قال أبو المعالي : يجوز سماع ما ليس بحرف ولا صوت ، فيسمعون كلام الله في الجنة بلا حرف ولا صوت كما يرون ذاته سبحانه من غير أن يكون جسماً ولا في جهة . وقال الإمام الإسفراييني في التبصير : اعلم أنّ كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت لأن الحرف والصوت يتضمنان جواز التقدم والتأخر ، وذلك مستحيل على القديم سبحانه اهـ وانظر في هذا البحث « شرح الإحياء » ٢/ ٣٠ و ١٤٤ ، و « فتح البارى » ١٣/ ٤٥٨.

(٤٨) بل قال الإمام السبكي وغيره كابن حجر الهيتمي إنّه صلى الله عليه وآله وسلم مرسل إلى كافة الخلق حتى الملائكة لقول تعالى : **{ ليكون للعالمين نذيراً }** ولحديث : « وأرسلت إلى الخلق كافة » . بل قد شهدت له صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة الأشجار والأحجار . واعلم أنّه من أنكر أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرسل إلى الجن فهو كافر لأنه أنكر القرآن وغيره .

(٤٩) اعلم أنّ ترتيب المخلوقات في الأفضلية من الأعلى كالتالي : سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم أولوا العزم من الرسل وهم خمسة نبينا محمد ، ثم إبراهيم ، ثم نوح ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم باقي الرسل على حسب درجاتهم ، ثم الأنبياء ، ثم الملائكة العظام ، ثم الصديقون والصالحون ، ثم عوام الملائكة ، ثم عوام الناس من المؤمنين ، ثم البهائم والأنعام ، ثم الكفار قال تعالى :

التوحيد وهو قول « لا إله إلا الله » ما لم تقترن بها شهادة الرسول[٥٠] ، وهو قولك « محمد رسول الله » وأَلْزم الخلق تصديقه صلى الله عليه وآله وسلَّم في جميع ما أَخْبر عنه من أمور الدنيا والآخرة ، وأنّه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت وأوّله : سؤاله منكر ونكير[٥١] ، وهما شخصان مهيبان هائلان يُقْعِدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد[٥٢] ، فيسألانه عن التوحيد والرسالة ، ويقولان له : مَنْ ربك وما دينك ومن نبيك ؟ وهما فتانا

{ أؤلئك كالأنعام بل هم أضل } . وأمَّا تفضيل الرسل بعضهم على بعض فدليله من القرآن : **{ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض }** البقرة : ٢٥٢ . ومعنى قوله تعالى في آخر سور البقرة : **{ لا نفرق بين أحد منهم }** معناه لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ولشيخنا السيد المحدّث عبدالله ابن الصديق ترتيب آخر بين أولى العزم وعظام الملائكة نذكره . بإذن الله تعالى مفصلاً في شرح الجوهرة .

(٥٠) أعلم أنه من قال : ليس بالضروري أنْ أشهد للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة بقولي « محمد رسول الله » بل يكفي أن أُوَحد الله وأقول « لا إله إلا الله » كافر بالله العظيم . قال تعالى : **{ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً }** فهذه الآية صريحة في تكفير مَنْ لم يؤمن بسيدنا محمد . فمن نازع في هذا الموضوع يكون قد عاند القرآن ومن عاند القرآن كفر . وأجمع علماء الإسلام على تكفير من دان بغير الإسلام وعلى تكفيره من لم يكفره قال تعالى : **{ إنّ الدين عند الله الإسلام }** ، **{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبل منه }** .

(٥١) الراجح عندنا عدم ثبوت السؤال وإن كان حديثهما في الصحيحين ، وإن كان هناك سؤال فهو على الروح في البرزخ . اعلم أنّ جاحد سؤال الملكين لا يكفر لأن ذلك جاء في حديث آحاد ولم يتواتر على التحقيق ، أمّا منكر عذاب القبر فيكفر ، قال تعالى :**{ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب}** ففي هذه الآية دليل على عذاب القبر مع الأحاديث المتواترة المشهورة .

والمراد بعذاب القبر عندنا عذاب البرزخ ، وإنما نسب إلى القبر لأن غالب الأجسام تدفن في القبور والناس لا يعقلون إلا الأمر الحسي المشاهد . ولا يجوز لنا عند ذكر عذاب القبر إلا أن نذكر معه نعيم القبر وهو على الحقيقة النعيم الذي يتنعم به الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة ، والموضوع طويل الذيل مُفَصَّل في شرحنا على « الطحاوية » والمراد عدم تخويف الناس بعذاب القبر بقصص وأشياء مكذوبة وخرافية مروية في بعض الأحاديث الواهية والموضوعة ، ويجب تبشير الناس بالرَّوح والريحان، « بشروا ولا تنفروا » .

(٥٢) هذه الفكرة مخالفة للقرآن كما أوضحتها في شرح الطحاوية ، وجاءت هذه الفكرة من تغليبهم الحديث ولو كان ضعيفاً على القرآن !! فهم إذا فكَّروا في أي قضية لا يفكرون ماذا ورد فيها من آيات أو ماذا ورد فيها في القرآن وإنما يفكرون ماذا جاء فيها من الأحاديث مع اعتقادهم بأنَّ السنة قاضية على القرآن وحاكمة عليه وشارحة له وهذه طامة الطامات !!

القبر[٥٣] ، وسؤالهما أوَّل فتنة بعد الموت ، وأنْ يؤمن بعذاب القبر ، وأنّه حق وحُكْمُهُ عدل وهو على الجسم والروح على من يشاء الله لمن يكون من أهل العذاب . أن يؤمن بالميزان[٥٤] ذي الكِفَّتينْ وصِفَتُهُ في العِظَم أنّه مثل طبقات السموات والأرض ، توزن الأعمال بقدرة الله تعالى ، ترجح الكِفَّةُ يومئذ بمثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورةٍ حسنة في كِفَّة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كِفَّة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله .

وأنَّ يؤمن بأنّ الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحَدُّ ممن السيف وأَدَق من الشعرة ، تَزِلُّ عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوي بهم إلى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار[٥٥] ، وأن يؤمن بالحوض المورود حوض سيدنا محمد

---

(٥٣) أخرج البخاري (٨٦) من حديث عائشة مرفوعاً « وإنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم » وهو شاذ منكر مردود عندنا !! إذ قد رواه مسلم (٩٠٥) ومالك في الموطأ (٤٤٧) وليس فيه ذكر هذه الفتنة . ومن قال بالسؤال قال : (فأما الأنبياء والشهداء والأطفال فلا يسألون ، وورد أنه مَنْ داوم على قراءة سورة الملك « تبارك » أنجاه الله من فتنة أو عذاب القبر) . وارجع إلى صحيح شرح الطحاوية ص (٤٥٩) لتعرف جلية الأمر في هذه المسألة .

(٥٤) قال تعالى : **{ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة }** سورة الأنبياء : ٤٧ ، وقال تعالى في سورة الأعراف : ٨ ، **{ والوزن يومئذ الحق }** ، وقال تعالى : **{ فَمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم }** الأعراف : ٨ .

الميزان إما أن يكون كناية عن العدل التام وهو الراجح ، وإما أن يكون الآلة ذات الكفتين والله تعالى أعلم .

(٥٥) حديث « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة » لا يثبت البتة لا في القرآن ولا في حديث صحيح . والصراط في الشرع هو الإسلام قال الله تعالى : { وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله } ولا يوجد يوم القيامة جسر ممدود على متن جهنم يمر الناس عليه ، لأنَّ طريقة دخول النار تتم بالدخول من أبوابها كالجنة وليس بالوقوع من هذا الجسر والهوي فيها !! قال تعالى { وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ..... قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها } الزمر : ٧١-٧٢ ، وما ورد من الأحاديث خلاف ذلك فهو مردود كما بينته في « شرح الطحاوية » بتوسع فليرجع إليه فإنَّه مهم .

صلى الله عليه وآله وسلَّم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط[٥٦] ، مَنْ شَرِبَ منه شَرْبَةً لم يظمأ بعدها أبداً ، عرضه مسيرة شهر ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء[٥٧] . فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر [٥٨] .

وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مُناقَشٍ في الحساب وإلى مُسامَحٍ فيه وإلى مَنْ يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون ، ويسأل مَنْ شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة[٥٩] ، ومَنْ شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل المبتدع عن السنة ويسأل المسلمين عن الأعمال ، وأنْ يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد[٦٠] .

وأنْ يؤمن بشفاعة[٦١] الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين كُلّ على حسب

---

(٥٦) الحوض هو المقصود بقوله تعالى { **انا عطيناك الكوثر** } وليس المراد بذلك نهر في الجنة لأن جميع المؤمنين لهم أنهار في الجنة ! وإنما حصل التمييز والتفضيل وعلو الشأن لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في موضع لم يعط الناس فيه شيئاً وذلك قبل دخول الجنة وهو الحوض .

وفيه أحاديث كثيرة صرَّح الحافظ ابن عبدالبر بتواتر ذلك .

(٥٧) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٩٢) : [حديث « من شرب منه شَرْبة لم يظمأ بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء » أخرجاه (بخاري ٦٥٧٩ ومسلم ٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، ولهما من حديث أنس : « فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » وفي رواية لمسلم : « أكثر من عدد النجوم »] .

(٥٨) روى ذلك مسلم من حديث ثوبان . وعندي أن الكوثر هو الحوض نفسه .

(٥٩) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه البخاري .

(٦٠) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه ذلك البخاري ومسلم . والحقيقة أن هذه المسألة تحتاج إلى إعادة بحث وتحقيق لا سيما أن السادة الزيدية والمعتزلة والإباضية ذهبوا إلى أنه لا يخرج من النار أحد دخلها ، وقالوا بأن من دخل النار لا يخرج منها وفكرة الخروج من النار غير موجودة في القرآن بل ذكرها القرآن على أنها رأي لليهود وردَّ عليها في قوله تعالى { وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة } إلى قوله تعالى { بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } وإنما جاءت فكرة الخروج من النار من الأحاديث التي تم التلاعب بها .

(٦١) الشفاعة ثابتة في القرآن للمؤمنين ، قال تعالى { ولا يشفعون إلا لمن ارتضى } وحديث « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » رواه الترمذي (٢٤٣٥و٢٤٣٦) وأبو داود (٤٧٣٩) وهو حديث شاذ مردود لمخالفته القرآن .

جاهه ومنزلته عند الله تعالى ، ومَنْ بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . وأنْ يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأنَّ أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم(٦٢) ، وأنْ يُحْسِنَ الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم ، كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلَّم أجمعين(٦٣) ، فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار ، فمن اعتقد جميع ذلك موقناً كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلالة وحزب البدعة فنسأل الله كمال اليقين وحُسْنَ الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنّه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى وسلَّم .

---

(٦٢) في ذلك خلاف مشهور بين أهل السنة فليست هذه المسألة من مسائل العقيدة ، إذ قد ذهب كثير من أهل العلم من الصحابة والسلف إلى أن أفضل الصحابة سيدنا علي رضي الله عنه وبعضهم ذهب إلى غير ذلك .

(٦٣) أي على السابقين الأولين ومَنْ تبعهم بإحسان إذ قال سبحانه : **{ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه }** .

فصـــــل
في أصول صفات المؤمن وأخلاقه
وقواعد السير إلى الله تعالى

قال الإمام الحافظ محي الدين النووي في كتابه المقاصد :

أصول طريق التصوِّف[٦٤] خمسة :

١ ـ تقوى الله[٦٥] في السر والعلانية .

٢ ـ واتباع السنة في الأقوال والأفعال .

٣ ـ والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار[٦٦] .

٤ ـ والرضا عن الله تعالى في القليل والكثير[٦٧] .

٥ ـ والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء[٦٨] .

فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة .

وتحقيق اتباع السنة بالتحفظ وحسن الخُلُق .

وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل .

وتحقيق الرضى عن الله تعالى بالقناعة والتفويض .

---

(٦٤) اختلف في اشتقاق كلمة التصوف ، وقال الإمام الغزالي في نظم ينسب له :

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن عنى المغنونـــــا

بل التصوف أن تصفو بلا كـــــدر وتتبع الحق والقرآن والدينـــــا

(٦٥) ليست التقوى بالمظاهر ولا بالسمعة بأنّ فلاناً ولي مثلاً كما يقول الناس ، بل التقوى هي العلم والعمل أي علم الأوامر التي أُمرنا بها ثم فعلها ومعرفة المنهيات واجتنابها فمن لم يكن قد حقق ذلك فلا يقرب من شاطىء الولاية ، فربما ذهب رجل وصام يوم العيد أو يوم تشريق يظن نفسه أنه بقربه وهو في معصية وذلك لعدم العلم .

(٦٦) أي يستوي عنده إقبال الناس عليه أو إعراضهم عنه فلا يؤثر ذلك في عبادته ولا في نفسيته بل لو آمن الناس أجمعون أو كفروا فلا يفتر عن الأقبال على الله تعالى .

(٦٧) أي إنْ جاع صبر وحمد الله وإن شبع شكر وحمد الله تعالى .

(٦٨) أي في جميع أحواله يكون غير غافل ، بل يدعو الله تعالى في السراء والضراء ، ولا يفتتن برخاء وسرور ونعماء أصابته .

وتحقيق الرجوع إلى الله تعالى بالشكر له في السراء والالتحاء إليه في الضراء .

وأصول ذلك كله خمسة :

علو الهمة ، وحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، ونفوذ العزيمة ، وتعظيم النعمة .

فمن عَلَتْ همته ارتفعت رتبته . ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته ، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته ، ومن نفذت عزيمته دامت هدايته ، ومن عَظّم النعمة شكرها ، ومن شكرها استوجب المزيد .

وأُصول العلامات خمسة[٦٩] :

طلب العلم للقيام بالأمر[٧٠] .

وصحبه المشايخ والإخوان للتبصّر[٧١] .

وترك الرخص والتأويلات للتحفظ وضبط الأوقات بالأوراد للحضور . واتهام النفس في كل شيء للخروج من الهوى والسلامة من العطب .

فطلب العلم آفته صحبة الأحداث[٧٢] سِنّاً وعقلاً وديناً ممَّن لا يرجع إلى أصل ولا قاعدة ، وآفة الصحبة الاغترار والفصول[٧٣] وآفة ترك الرخص والتأويلات الشفقة على النفس . وآفة

---

(٦٩) أي أصول العلامات التي يستدل بها على صحة مسلك وقبول طريقة السائر إلى الله هذه الخمسة التي شرع في بيانها .

(٧٠) اعلم أنه دون التعلم والتفقه ومعرفة علم التوحيد لا يجوز إطلاق اسم الصالح على الشخص فلا تغرك المناظر والمظاهر وكما قال الجنيد رضي الله عنه ! « إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويسير على الماء فلا تغتروا به وانظروا إلى عمله بالكتاب والسنة » .

(٧١) يعني بالمشايخ والإخوان أهل العلم فالمشايخ هم الذين أكبر منه سِنّاً والإخوان من يقاربونه في السن ، فإن لم يكن أولئك علماء يفيدون السائر معهم فالأولى الابتعاد .

(٧٢) معنى الحدث الصغير ، فربما كان طفلاً فيقال حدث بالسن أي لصغر سنّه ، وربما كان كبيراً في السن لكن صغيراً في العقل فلا تنفع صحبته ، وربما كان كبيراً في السن وعقله كبير بمعنى أنه يمكنه أن يتعلّم الأحكام الشرعية ويصبح مستبصراً لكنه مُفرِّط لا علم عنده فلا خير في صحبته ويقال له : حَدَّثٌ في الدين .

(٧٣) أي الاغترار بالنفس والفضول في طلب الصحبة يضران ، فلربما ظن نفسه أنه لا تضره مصاحبة الأشرار ولا يتأثر بهم فيُجَرُّ إلىطريقتهم ويفسد عليه حاله ، روى الترمذي (٢٣٧٨) وأبو داود (٤٨٣٣) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » قال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب » .

اتهام النفس الأُنس بِحُسْنِ أحوالها واستقامتها وقد قال الله تعالى : **{ وإنْ تعدل كل عدل لا يؤخذ منها }** الأنعام : ٦ .

وأصول ما تداوي به علل النفس خمسة :

تخفيف المعدة بقلة الطعام والشراب .

والالتجاء إلى الله تعالى مما يعرض عند عروضه .

والفرار من مواقف ما يخشى الوقوع فيه .

ودوام الاستغفار مع الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم آناء الله وأطراف النهار باجتماع الخاطر . وصحبه من يدلك على الله تعالى .

خـــَاتـــــــمة

في بيان الوصول إلى الله تعالى[٧٤] ، وهو بالتوبة من جميع المحرمات والمكروهات ، وطلب العلم بقدر الحاجة إليه ، والملازمة على الطهارة ، وأداء الفرائض والرواتب في أوّل وقتها جماعة ، وملازمة ثمان ركعات الضحى ، وست بين المغرب والعشاء ، وصلاة الليل ، والوتر ، وصوم الإثنين والخميس ، وثلاثة أيام البيض ، والأيام الفاضلة وتلاوة القرآن بالحضور والتدبر ، والإكثار من الاستغفار ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم ، وملازمة أذكار السُّنّة صباحاً ومساء . ومنها : « اللهم بك نصبح وبك نمسي وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور »[٧٥] . وفي المساء بدل (وإليك النشور) : (وإليك المصير) . « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله والكبرياء لله والعظمة لله والخلق والأمر والليل والنهار وما سكن فيهما لله » قراءة آية الكرسي وآخر ثلاث آيات من سورة البقرة .

اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فَلَكَ الحمد ولك الشكر ، ثلاثاً .

« اللهم إني أصبحت أُشهدُكَ وأُشْهِدُ حَمَلَةَ عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا اله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، أربعاً .

ورضيت بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلَّم نبياً ورسولاً ، ثلاثاً .

أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، ثلاثاً .

وصلى الله على سيدنا محمد عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشة ومداد كلماته وحسبنا الله ونعم الوكيل[٧٦] .

---

(٧٤) معنى الوصول إلى الله تعالى : أي إلى رضاه سبحانه .

(٧٥) انظر سنن الترمذي (٣٣٩١) .

(٧٦) وسنشرح هذه الرسالة في التصوف إن شاء الله تعالى شرحاً واسعاً ونقوم بعون الله تعالى بطبعها والله الموفق .